﴿ عذاب الفضلاء ﴾

نشرنا في الفصل السابق شيئاً من اقوال احدى الكاتبات بشأن ما يصيب اصحاب الملايين من الاحزان لتوحدهم وعدم ثقتهم باحد وابتعادا ولي الاخلاص عنهم وتقرب اولي المداهنة والرياء منهم . وهي اقوال كان لها بعد ان نشرت بقليل صدى رن في كل مكان فقام الكتاب يتجادلون عليها ويهتمون من اجلها حتى لقد ارسلت احدى الصحف الى الاغنياء تسألهم آراءهم في ذلك وهل صحيح ما قالت تلك الكاتبة او لا فمنهم من اعترف بصدق ما قالت ومنهم من انكر انهم منفردون متوحدون بدعوى انهم يعاشرون امثالهم ممن لا يطمعون فيهم فيكون ثم اخلاص محض وثقة تامة

ولقد كان في جملة الذين انبروا للدخول في هذا المضمار المستر كارنيجي الغني المحسن العظيم فانه نشر مقالة طويلة بهذا المعنى قال فيها انه ليس الغني وحده بمحسود او هو المختص بالحزن والضيق بل ان اولي الفضل الكبير والشهرة الواسعة هم ممن يدخلون في جملتهم حتى يعد من يحسدهم او يغبطهم على ضلال مبين وذلك لان الناس تترقب حركاتهم وسكناتهم على الدوام والنقاد يحتاطون باقوالهم من كل جانب يوسعونها نقداً كما انهم متبعون اينما حلوا وساروا بالذين يريدون مقابلتهم والتحدث معهم والذين يريدون تصويرهم والظفر بخطوطهم ونقل اصواتهم ونحو ذلك شيء كثير يجعل حياتهم في اشد الاضطراب حتى لقد يقال ان الصداقة المحضة تعز عليهم فلا يظفرون منها بأثر وكذلك الحب لانه ما من رجل يتقرب من انثى اذا

كانت كاتبة عظيمة الا لغاية وهي التزوج بهـا والتشرف بقرباها وجر المغنم من مالها وما من انثى تعجب برجل عظيم الا وهي على ذاك الامل دون ان يكون في فؤادها حب حقيقي حتى لقد ذكر عن كاتبة واحـدة ان معدل ما يردها من الـكتب في طلب الزواج كل اسبوع يبلغ خمسمئة كتاب فاية مضايقة تكون اشد من هذه المضايقة ولاسيما وان المرأة لا تزال غير متزوجة لانه قد عز عليها ان تظفر بالمخلص من بين هؤلاء الجماهير

ثم ان الـكاتب او الشاعر الشهير قد ظلم من فرط علمه حتى لا يرحمه احد فهو دائما معروف من الناس اينما نزل وفي اية ارض حل حتى انه يحاول التوحد والعزلة محاولةً فلا يستطيعها لانه مقيـد من غيره بالدعوات المتتابعات والرسميات المتواليات كما انه مقيد من نفسه بالذود عنها والمدافعة عما يتهم به ويؤاخذ عليه من اقواله ومقيد ايضاً بحب ابقاء تلك الشهرة له وعدم منازعة احد لفضله والتبريز عليه كما انه دائم القلق والتـوقع لحملات المدعين والجهلاء والمتظاهرين بالعلم وامثالهم ممن ينغصون معيشته ويسدون عليه مذاهب الراحة

هذا معنى ما يقوله كارنيجي وهو ما اشرنا الى كثير منه في مقالة ماضية بعنوان « مضايقة الفضل لاهله » كما ان كل الذي يقوله ذاك الغني بماله عن الاغنياء بعقولهم السامية ومداركهم الواسعة انما هو صحيح لا رد عليه لانه لا يوجد من عظيم بين قديم او جديد الا وهو متضايق من فضله متململ من ادبه وذلك لان الله الذي وهب العظماء الحكمة والسداد قد وهبهم ايضاً رقة الشعور وشدة التأثر والانفعال ولذلك تراهم يتضايقون جداً من كل مدع ويكتئبون كثيراً اذا عبث بالادب عابث ولقد كان

المتنبي على جلالة قدره وسعة حاله وغناه عن غيره يتضايق كثيراً من الذين يدعون الشعر ويزاحمونه حتى لقد كان يخفي فرط تأثره طي كبريائه كما يبدو من قوله

ارى المتشاعرين غروا بذمي ... ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرّاً به الماء الزلالا

ومن قوله لسيف الدولة

ازل حسد الحساد عني بكبتهم ... فانت الذي صيرتهم لي حسدا

ومن قوله ايضاً

وما التيه طبي فيهم غير انني ... بغيض اليّ الجاهل المتعاقل

وقوله

يرومون شأوي في الكلام وانما ... يحاكي الفتى فيما خلا المنطق القرد
فهم في جموع لا يراها ابن دأية ... وهم في ضجيج ما يحس به الخلد

مع انهم كانوا في الحقيقة في ضجيج شديد احس به هو حتى قال ما قال وفي هذا ما يدل على انه كان كاصحاب الملايين معذبا من فرط فضله كعذابهم من فرط غناهم والى مثل هذه المضايقة يشير ابو بكر الخوارزمي بقوله « على ان النظر الى عين الشمس اهون عليّ . وايسر على عيني . من ان انظر الى ذلك الصدر . وقد جاس فيه غير ذلك البدر . واني لاستحيي لعيني ان افتحها على الصغير وقد جاس مجاس الكبير « الى ان يقول » فان ابتلاني بذلك وجدني ضيق ساحة الصدر . قريب غور الصبر . كثير المباراة . قليل المداراة » وهو ما يدل على انه كان معذبا لشدة تأثره من

الحالة التي يصفها على انه ما تأثر هـذا التأثر الشديد الا لعظم فضله وكونه الخوارزمي

والى مثل هذه الحال يشير ابو تمام في قوله

ومدح من ليس اهل المدح احسبه نفسي تفصل من قلبي ومن كبدي

فلو لم يكن شاعراً مجيداً من عظماء الناس لما تأثر من مدح من لا يستحق ولا شعر بشيء من ثقل ذلك عليه بل لمدح كما يمدح شعراؤنا الان لا يهمه انصف ام ظلم

هذا وللشعراء والكتاب الكبار اقوال كثيرة تدل على انهم بين اغنياء وفقراء كانوا معذبين مما يحيط بهم ويرونه حواليهم سواء كان من منع الفضل لراحتهم او لشدة تأثرهم من مغايرات الواجب ودعاوى المدعين ومزاحمة المزاحمين ولذلك يصرح المتنبي بقوله

كلام اكثر من تلقى ومنظر مما يشق على الاذان والحدق

وهو قول قد املاه الضمير ودفعت اليه حقيقة الواقع

وعلى الجملة فان قول كارنيجي بان الكتاب والشعراء الكبار معذبون عذاب الاغنياء الكبار لمن الاقوال الصحيحة التي جئنا الان عليها بالبراهين من نفس كلامهم ولا شك ان لكتاب الافرنج وشعرائهم اقوالا كثيرة كهذه تدل على عذابهم من كل ما يجدونه واقعا عليهم بسبب فضلهم الا ان عذابهم ربما يكون اشد من عذاب فضلاء العرب بسبب انتشار الصحافة وكثرة الكتابة وبسبب من يلتف عليهم من المراسلين والمتحدثين والمصورين والنقادين وكثرة ما يرونه من الخطل ويشاهدونه من الزلل